فعّالية التلقي في نظر عبد القاهر الجرجاني

The effectiveness of receiving in the eyes of Abdel-Qahir Al-Jarjani

د/ فاطمة الزهراء نهمار ♣

تاريخ الإرسال: 2020/01/16	تاريخ القبول:2020/04/07	تاريخ النشر:2020/06/30

الملخص:

يهدف المقال إلى التعريف بنظرة عبد القاهر الجرجاني إلى التلقي وما يحيط به فهو واحد من اللذين كان لهم اهتمام واسع بالمتلقي، ويظهر ذلك في مضامين نصوص كتابيه " أسرار البلاغة" و" دلائل الإعجاز"، ودراساته واحدة من الدراسات النقدية العربية القديمة التي لها اهتمام بظاهرة التلقي المقترنة بمقولة: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، أو "لكل مقام مقال"، وهذا يعكس توطّد علاقة النص بسياقه وبخبرة المتلقي وذوقه الجمالي ، فلا يُلقى إليه الخبر مؤكّدا إنْ كان خالي الذهن، ولا خاليا من التأكيد إنْ كان مُنكرا لما يسمع، وعلى موقفه الإنكاري تكون درجة التأكيد وقوته بالوسائل المستخدمة في الأسلوب العربي.

الكلمات المفتاحية : التلقي ، تصور عبد القاهر الجرجاني ، الإبداع ، الجمالية ، التأثر .

Abstract:

The article aims to introduce Abd al-Qaher al-Jarjani's view to receiving and what surrounds him. He is one of those who had a wide interest in the recipient, and this appears in the contents of his texts "Secrets of Rhetoric" and "Evidence of Miracle", and his studies are one of the ancient Arab critical studies that have an interest in a phenomenon Al-Talqi accompanied by the saying: "matching the words to the case," or "for every article", and this reflects the

المؤلف المرسل: فاطمة الزهراء نهمار zahraanahmar@gmail.com،

♣جامعة البليدة- 2 – الجزائر zahraanahmar@gmail.com

strength of the text's relationship with its context and the recipient's experience and its aesthetic taste, so the news will not be delivered to him confirming that he is free of mind, or without confirmation if he denies what he hears, and on His denial position is the degree of assertion and his strength by means Used in the Arabic style,

***Key words**: Receive - Receiver - Abdul Qahir Al - Jarjani - Creativity - The aesthetic - Affected Technical and creative texts.*

*** *** ***

مقدمة :

تعدّ نظرية التلقي من النظريات الأدبية المعاصرة التي تُعنى بالتداول للنصوص الأدبية، وتقبّلها وتبيان المشاركة الفعالة بين النص الذي أنشأه المبدع والقارئ المتلقي، وتركّز جلّ اهتمامها على ما يتركه العمل الأدبي من آثار شعورية ووقع جمالي في نفس المتلقي، فالعمل الأدبي لا تكتمل حياته وحركته الإبداعية إلاّ عن طريق القراءة وإعادة الإنتاج من جديد، لأنّ المؤلف ما هو إلاّ قارئ لأعمال سبقته فلولا ذلك لما استمرّ الأدب في التطور.

وإذا ما نظرنا في تراثنا العربي نجد أنّ التلقي ظاهر من خلال قاعدة بلاغية معروفة وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذا يعكس توطّد علاقة النص بخبرة المتلقي وذوقه الجمالي، فقد كان النقد العربي بكل مصادره ومعارفه ووسائله المتعددة في التعامل مع ضروب الكلام أكثر التزاما بطبيعة العلاقة بين النص وأحوال المتلقي، وعبد القاهر الجرجاني واحد من اللذين كان لهم اهتمام واسع بالمتلقي، ويظهر ذلك في كتابيه " أسرار البلاغة" و" دلائل الإعجاز" ، وبحثه البلاغي " إنّما كان بحثا في خبايا النفس الإنسانية وما تأنس إليه وما تنفر منه ، وما يبعث فيها الأريحية، وما يثير فيها الوحشة والاضطراب "[1].

لذلك سيحاول هذا المقال التعريف بنظرة عبد القاهر الجرجاني إلى التلقي وما يحيط به معتمدا على المنهج الوصفي التحليلي ، فكيف نظر عبد القاهر الجرجاني إلى التلقي ؟ وما المفاهيم التي أعطاها لذلك؟

لقد كان النقد العربي بكل مصادره ومعارفه ووسائله المتعددة في التعامل مع ضروب الكلام أكثر التزاما بطبيعة العلاقة بين النص وأحوال المتلقي، فلا يُلقى إليه الخبر مؤكّدا

إنْ كان خالي الذهن، ولا خاليا من التأكيد إنْ كان مُنكرا لما يسمع، وعلى موقفه الإنكاري تكون درجة التأكيد وقوته بالوسائل المستخدمة في الأسلوب العربي، ولذلك اهتمّ الفكر العربي بمنازل المخاطبين وأقدارهم الاجتماعية في النص الخطابي وكذا بالأحوال النفسية للمتلقي .

هذا وغيره يؤكّد أنّ علماء العرب وعبد القاهر الجرجاني واحد منهم كان لهم اهتمام بقضايا التلقي فبلغوا في بحث مشكلاته وقضاياه ما لم يبلغه علماء اللغات الأخرى في العصور المتعاقبة، فكان لهم آراء وأفكار ومناهج تؤكّد اجتهاداتهم الواضحة وخصوصيتهم المنفردة رغم ما لقيته من إجحاف من لدن الدراسات الغربية .

فالمتأمل في كتابي الجرجاني يرى ما يلي :

1 _ يعتمد في كتابيه أسلوبا خاصا به فهو يحاور ويخاطب ويسائل ويناقش ويحاجج وكأنّه يتحدث مع متلقٍ حاذق يود منه أن يصل معه إلى أعماق نصوصه فيسبر كنهها ويذوق حلاوتها، ويظهر ذلك من خلال توظيفه لكاف الخطاب وتكراره للعبارات الآتية : (اعلم أنّ ...)، (فأنت تعلم أنْ لا وجه لهذا ...)، (وليس من حقك أنْ تتكلف هذا في كل موضع ...)، (إنْ قال قائل: ...حتى كأنّك تقول ...)، (فإنْ قلت ...قيل ...)، (فإن قلت:...فالجواب ...)، (وينبغي أن تعلم ...)، (وإذ قد تبين لك المنهاج في الفرق...فاعلم أنّه ...)، (فإن قلت :...فأنا أقول : ...).

ومن الأمثلة على ذلك قوله في **" أسرار البلاغة "** : " واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنْواعها، وأتتبّع خاصّها ومُشَاعَها، وأبين أحوالها في كرم مَنْصبها من العقل، وتمكُّنَها في نِصَابه، وقُرْب رَحِمِها منه، أو بُعدها حين تُنسب عنه، وكَوْنِها كالحَلِيف الجارِي مجرى النَّسَبَ، أو الزَّنيم الملصَق بالقوم لا يقبلونه، ولا يمتعضون له ولا يَذُبُّون دونه" [2]، وفي **"دلائل الإعجاز"** يقول : " وإذ قد عرفْتَ أنَّ مدارَ أمرِ "النظْم" على مَعاني النحو، وعلى الوجُوهِ والفُروق التي من شأْنها أَنْ تكونَ فيه، فاعلمْ أنَّ الفروقَ والوجوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها، ونهاية لا تجد لهال ازدياداً بَعْدها ثم اعْلَمْ أنْ ليستِ المزيةُ بواجبةٍ لها في أنْفُسِها، ومِنْ حيثُ هي على الإطلاق، ولكنْ تعرضُ بسببِ المعاني

والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ، ثم بحَسَبِ موقعِ بعضِها من بعضٍ، واستعمالِ بعضِها معَ بعضٍ."[3].

2 – يكرّر استعمال كلمات دالة على الأثر الجمالي الذي يصيب نفس المتلقي عند تلقيه النصوص الأدبية مثل : (الأريحية ، الأنس ، الهوة ، الطرب ، الظرف) [4]، فعلى سبيل التمثيل تجد ذلك حينما يتكلم عن أحد أقسام التشبيه وما يتركه من أثر جمالي فيقول : " وكذلك التشبيه من جهة الهيئة نحو: أنه مستوٍ منتصبٌ مديدٌ، كتشبيه قامة الرَّجل بالرمح، والقَدِّ اللطيفِ بالغصن ويدخل في الهيئةِ حالُ الحركات في أجسامها، كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسَّهم السديد، ومَنْ تأخذه الأريحيّةُ فَيهتزُّ بالغصن تحت البارح، ونحو ذلك وكذلك كل تشبيهٍ جَمَعَ بين شيئين فيما يدخل تحت الحواسّ، نحو تشبيهك صوتَ بعض الأشياء بصوت غيره، كتشبيه أطيطِ الرحل بأصوات الفراريج " [5]، وأيضا لما تحدّث عن نظم الكلام ومكان النحو منه فيقول : " وإذا قد عرفْتَ ذلك، فاعمَدْ إلى ما تَواصَفُوه بالحسن وتَشاهَدوا له بالفضْل، ثم جَعلوه كذلك من أجلِ "النظْم" خصوصاً، دونَ غيرِه مما يُستحسَنُ له الشعرُ أو غيرُ الشعر، من معنى لطيفٍ أو حكمةٍ أو أدب أو استعارةٍ أو تجنيسٍ أو غيرِ ذَلك مما لا يَدخلُ في النَّظم، وتأَمَّلهْ ، فإذا رأيتَكَ قدِ ارتحْتَ واهتزت واستحسنْتَ، فانظرْ إلى حرَكات الأريحيَّةِ ممَّ كانتْ؟ وعندَ ماذا ظهرَتْ؟ فإنك تَرى عِياناً أَنَّ الذي قلتُ لك كما قلتُ "[6].

وفي مقابل ذلك يكرّر كلمات دالة على الأثر السلبي الذي يلحق بنفس المتلقي عند وجود خلل في البناء التركيبي والتصويري والإيقاعي للعبارات الشعرية مثل : (الوحشة ، النفرة، الاضطراب، النبو، القلق) [7]، فعلى سبيل التمثيل نجد الجرجاني حينما يتحدث عن الفروق في الخبر يفرّق بين الاستعمال الدقيق للفعل والاسم ومدى تأثير ذلك على النفس المتلقية فيقول : " وينعكسُ لك هذا الحكمُ أَعني أنك كما وجدْتَ الاسمَ يقَعُ حيثُ لا يَصلُح الفعلُ مكانه، كذلك نجد الفِعْلَ يَقَعُ ثُم لا يَصلُحُ الاسمُ مكانَه، ولا يؤدِّي ما كانَ يؤديه.

187 - فمن البَيِّنِ في ذلك قول الأعشى:

لعَمْري لقدْ لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوءِ نارٍ في يَفاع تَحَرَّقُ

تُشَبُّ لِمَقْرورَين يَصْطَليانِها ... وبات على النار الندى والمحلق

معلوم أن لو قيل: "إلى ضوء نارٍ مُتَحَرِّقة" ، لَنَبا عنه الطبْعُ وأنكرَتْه النفسُ، ثم لا يكونُ ذاك النبوُّ وذاك الإنكارُ من أجل القافية وأنها تُفْسَد به، بل من جهةِ أنه لا يُشْبِهُ الغرَضَ ولا يليقُ بالحال." [8].

وفي موضع آخر يقول عن نصرة اللفظ على حساب المعنى : " فمن نَصَرَ اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جِهَته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه، وفيه فَتْح أبواب العيب، والتَّعرُّضُ للشَّيْن" [9] .

1 – مفاهيم التلقي في نظرعبد القاهر الجرجاني :

من يقرأ كتابيه " أسرار البلاغة" و" دلائل الإعجاز" ويتأمّل فيهما ويتمعّن في مضامينهما يجد أنّه أعطى للتلقي مفاهيم أهمها :

1 – 1 التلقي عبارة عن إبداع ، إذ نجده في أحيان كثيرة يجعل للمتلقي مواصفات تكاد تتعادل مع المواصفات الإبداعية ويمنحه حقوقا لا يقل عمّا منحه للمبدع ، فقد جعل الإبداع الفني وصفا مشتركا بين منتج النص ومستقبله [10] ، لذلك كان الوصول إلى المتعة الجمالية والفنية التي تصيب نفس المتلقي ثمرة الجهد المبذول والفكر الدقيق وهذا واضح في قوله : " وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله، فهل تشكّ في أن الشاعر الذي أدّاه إليك، ونشر بَزَّه لديك، قد تحمّل فيه المشقّة الشديدة، وقطع إليه الشُّقة البعيدة، وأنه لم يصل إلى دُرِّه حتى غاص، ولم ينل المطلوب حتى كابدَ منه الامتناع والاعتياص " [11].

أضف إلى ذلك فقد أعطى للمتلقي شرعية التدخل الصياغي كتقدير المحذوف والكشف عن الأصل الذي عدل عنه التركيب في صورته الجديدة، ومن ثمة يُتاح للمتلقي مشاركة المبدع في تجربته والاندماج فيها ، فيصبح المتلقي في حالة لذة وشوق حينما يتسائل عن المحذوف وأسرار بلاغته ، وفي هذا متعة يصعب تصورها [12] ، يقول عبد القاهر الجرجاني : " هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تبن " [13] .

1 – 2 التلقي هو اجتهاد ، و هذا ظاهر من خلال حرص عبد القاهر الجرجاني على أن يكون قارؤه منفعلا مع النص ومتأثرا به، لذلك فإنّه يحثه على الطلب والاجتهاد في تحصيل المعنى المراد فيقول : " وبأنَّ المعنى لا يحصُل لك إلا بعد انبعاثٍ منك في طلبه، واجتهادٍ في نيله، هذا وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله، فهل تشكّ في أن الشاعر الذي أدّاه إليك، ونشر بَزَّه لديك، قد تحمّل فيه المشقّة الشديدة، وقطع إليه الشُّقة البعيدة، وأنه لم يصل إلى دُرّه حتى غاص، ولم ينل المطلوب حتى كابدَ منه الامتناع والاعتياص؛ ومعلومٌ أن الشيء إذا عُلم أنه لم يُنَل في أصله إلا بعد التَّعب، ولم يُدرَك إلا باحتمال النَّصَب، كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه، وأخْذِ الناس بتفخيمه، ما يكونَ لمباشرة الجهد فيه، وملاقاةِ الكرب دونه "[14].

وبهذا يكون القارئ " أمام عالم من الحرية الفكرية في فهم النص المتدفق بالحياة والعطاء ، وبذلك قد تتقارب القراءات في سبر أبعاد النصوص لكنها لا يمكن أن تتطابق أو تتوحد ، وهذه سمة النص الجيد الذي يتجدد عطاؤه بتجدد متلقيه كلٌّ على قدر ما يحوي من خبرات فنية وجمالية في تلقي النصوص "[15] .

1 – 3 التلقي ليس بالعمل اليسير بل يقتضي النظر بالقلب والاستعانة بالفكر وإعمال الرّوية ومراجعة العقل والاستنجاد بالفهم[16]، فتلقي النصوص البيانية مختلف من متلقٍ إلى متلقٍ ، فالناس ليسوا على قدر واحد في فهمها وتلقيها لأنّ العالية منها فيها " دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر، لطائف مُسْتقاها العَقلُ، وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها، ودُلُّوا عليها، وكُشِف لهم عنها، ورُفعتِ الحُجُب بينَهُم وبينَها3، وأنها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ، ووجبَ أن يفضُلَ بعضُه بعضاً، وأن يبعدَ الشأوُ في ذلك، وتمتدَّ الغايةُ، وَيعلوَ المُرتقَى، ويعزَّ المطلبُ "[17].

2 – الآليات الجرجانية في التلقي الفعّال:

مما سبق ذكره يُفهم أنّ سبر أغوار النصوص الفنية والوصول إلى المتعة الجمالية التي تثيرها يقتضي أدوات وآليات وجب توفرها في المتلقي وهذا ما أكّد عليه عبد القاهر الجرجاني مرارا في مضامين نصوص كتابيه ، أشهرها ما يلي :

2 – 1 الذوق :

يُعد الذوق عند الجرجاني أداة مهمة في تقدير العمل الفني واستكناه الأبعاد الجمالية للنصوص ، ومن ثمة يكون المتلقي قادرا على الانفعال معها والتأثر بها، وقد " يقترن في خطاب عبد القاهر الجرجاني النقدي بالطبع ، وقد يرادف هذا الأخير في الخطاب ذاته الأول فيُفهم من هذا تداخل المصطلحين ، وتناوب أحدهما مناب الآخر، الأمر الذي يعني – بداهة- تلاقي الدلالة لكل منهما ، ويعني – ببداهة أشد- أنّ الحديث عن الذوق لا يُفهم إلاّ على أنّه حديث عن الطبع تماما كما أنّ الحديث عن الطبع لا يُفهم هو الآخر إلاّ على أنّه حديث عن الذوق " [18] .

فبالذوق أو الطبع يتمكن المتلقي من التعايش مع النص والحصول على المتعة الجمالية والبيانية التي يثيرها في النفس، فمن البيان ما يخفى موضعه فلا يبين إلاّ " إذا كان المتصفِّح للكلام حسَّاساً، يعرف وَحْيَ طَبْع الشعر، وخفيَّ حركته التي هي كالخَلْسِ، وكَمَسْرَى النّفْسِ في النّفْس." [19]، وفي أحيان كثيرة يطوي في أعماقه على خفايا ودقائق " لا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية، والعقول النافذة، والطباع السليمة، والنفوس المستعدَّة لأن تَعِيَ الحكمةَ، وتعرف فَصْل الخطاب "[20].

ومن ثمة فالذوق هو أول شروط التلقي وبدونه لن يتأثر المتلقي بالنص ولن تتجاوب نفسه مع الرؤى الجمالية التي يفيض بها .

2 –2 الإطار الثقافي :

من الضروري أن يكون المتلقي مالكا لإطار ثقافي معين، وقد أولاه الجرجاني أهمية ملحوظة باعتباره أداة لازمة للتلقي إلاّ أنّه لم يستخدم " مصطلح الثقافة لا في أسرار البلاغة ولا في دلائل الإعجاز ، ولكن يستخدم ما يكون بديلا لها . بعبارة أخرى فإنّه يستخدم من المصطلحات ما يتصل بنحو ما بمصطلح الثقافة كالمدارسة والعلم وغيرهما ، بل إنّ ما يطويه الرجل تحت هذه شبيه بما ينطوي تحت مصطلح الثقافة ." [21]

لذلك نرى الجرجاني في مواضع كثيرة يذكر الذوق والمعرفة بشكل متلازم فيقول : " واعلمْ أنه لا يصادِفُ القولَ في هذا البابِ موقعاً من السامِعِ، ولا يَجدُ لديه قَبولاً، حتى

يكونَ من أهلِ الذوقِ والمعرفةِ " [22]، وفي موضع آخر يقول :" فمما لا مساغَ له عندَ مَنْ كان صحيحَ الذوق صحيح المعرفة نسابة للمعاني." [23]

فالذوق إذن عند الجرجاني غير كاف " لتلق النصوص البيانية ما لم يضف إلى ذلك معرفة وثقافة تمكنه من سبر الأفاق الجمالية التي تفيض بها النصوص الفنية ، لأنّ هناك أبعادا غامضة ودقيقة لا يكشفها الذوق السليم بمفرده ما لم يكن مزودا بهذه المعرفة التي تجعله قادرا على الإحساس بالمتعة الجمالية التي تثيرها تلك النصوص ، وعندها تشعر النفس المتلقية باللذة التي تعقب هذه الرحلة المضنية والممتعة في التلقي ، لذلك لابد أن يكون المتذوق صاحب ثقافة لغوية راسخة تقف على أسرار الكلام وتسبر أغواره حتى لا يكون صاحبه عالما في ظاهر مقلد " [24].

2 – 3 الدّربة :

حرص عبد القاهر في كتابيه على " الرياضة " و" إدمان قرع العلم " وضرورة توفرهما عند المتلقي وأهميتهما في نقل المعرفة والثقافة بقوانينها وقواعدها من إطارها النظري إلى إطارها التطبيقي ، ونجد ذلك عند توقف الجرجاني عند فعل " الرياضة ط وما يحدثه الارتياض على الشاعر والناقد فيقول : " وإنّك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك في المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب، وردّ البعيد إلى المألوف القريب، ما يُعْطي البحتريُّ، ويبلغ في هذا الباب مبلغه، فإنه لَيروض لك المُهْرَ الأرِنَ رياضةَ الماهر، حتى يُعْنِق من تحتك إعناقَ القارِح المذلَّل، وينزِعَ من شِمَاس الصعب الجامح، حتى يلين لك لِينَ المنقاد الطَّيع "[25] .

وفي موضع آخر ينقل عن الجاحظ ما له علاقة بإدمان قرع العلم وإعادة الفكر والنظر ، وكل ذلك تأكيد على أهمية الدُّربة فيقول : " وقال الجاحظ في أثناء فصل يذكر فيه ما في الفكر والنظر من الفضيلة: وأين تقع لذّةُ البهيمة بالعَلُوفة، ولذّة السَّبُع بلَطْع الدَّم وأكلِ اللحم، من سرور الظفر بالأعداء، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه، وبَعْدُ، فإذا مُدّت الحَلَباتُ لجري الجياد، ونُصِبت الأهداف لتعرف فضل الرُّماة في الإبعاد والسّدَاد، فرهانُ العقول التي تستَبق، ونِضالها الذي تمتحِن قواها في تعاطيه، هو الفِكر والروّيةُ والقياس والاستنباط" [26] ، فهذان النصان يؤكدان على فاعلية الدربة والممارسة ، فبدونهما لن يتمكّن المتلقي من التمرس مع دقائق النصوص وما تنطوي عليها من أسرار .

2 – 4 التأمّل :

يلح عبد القاهر في مواضع عديدة على التأمل ، فهو أحد سمات الاستجابة الجمالية عنده ويدخل في وظائف الفكر بل هو فعل التفكير في حد ذاته ، يقصد به " التفكير الجديد في نص أو فكرة شعرية انتهى الفكر من تشكيلها ، وهو إذ يتناولها بعد ذلك فمن حيث علاقات أجزائها بعضها ببعض، ثم علاقتها بالذات نفسها ، بعد ذلك يروق لنا النص ، ونرى من " الظرف" و " الاستحسان " و " الأريحية " ، و " الأنس " ، ويتولد الانفعال الجمالي ، ونحس بالمتعة والأريحية التي يولدها تأمل القدرة الفنية لهذا الشيء المصنوع في صورته التي يبدو فيها كمال صتعنه الحية " [27] .

ويظهر ذلك على سبيل التمثيل عند حديثه عن شواهد الجمع بين المتباعدات فيقول : " ثم كرِّرِ النظر وتأمَّلْ كيف حصل الائتلاف، وكيف جاء من جمع أحدهما إلى الآخر، ما يأْنَس إليه العقل ويحمَده الطبع؟ " [28] ، وفي موضع آخر يقول : " ثم راجعْ فكرتَك، واشْحَذْ بصيرتَك، وأحسِنِ التأمُّل، ودع عنك التجوُّز في الرأي، ثم انظر هل تجدُ لاستحسانهم وحَمْدهم وثَنائهم ومَدحهم مُنْصَرَفاً، إلاّ إلى استعارةٍ وقعت موقعَها، وأصابت غَرَضها، أو حُسن ترتيب تكاملَ معه البيانُ حتى وصلَ المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقرَّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن، وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد، والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد، وشيءٍ داخَلَ المعاني المقصودَة مداخلةَ الطفيليّ الذي يستثقل مكانهُ، والأجنبيّ الذي يُكره حُضوره، وسلامتهِ من التقصير الذي يَفْتَقِر معه السامِعُ إلى تَطَلُّب زيادةٍ بقيت في نفس المتكلم " [29]، فمراجعة الفكر والتأمل والبصيرة كلها تعين المتلقي في تقييمه الجمالي للأشياء .

2– 5 المتلقي وموضوعية الجمال :

تجد عبد القاهر في مواطن كثيرة من كتابيه لا يكتفي فقط بالتأثّر بالنصوص الفنية ومعرفة مكان الجمال فيها بل يكون موضوعيا فيها وذلك بالبحث عن أسبابه وعلله ، فالتأثر والانفعال مع النصوص أمر تتطلبه عملية التلقي ، لكنه لا يكتفي بذلك فقط وإنّما لابد من التفاعل مع جوهر النصوص ومعرفة عالمها الداخلي وأسراره والبحث عن أسباب ذلك جماليتها .

ولعلّ عبد القاهر كان " أسبق القدماء أو أكثرهم مزجا بين الاستحسان وتحليله ، فتوقف عند مستويات النص مستحسنا ومحللا ومعللا لهذا الاستحسان ، وهذا هو الموقف الأفضل حيث يكشف اتجاه المتلقي وقدراته في تحديد مواطن الجمال وتحليلها "[30].

يرى عبد القاهر أنّ " للحسن أصلا وصفات وعناصر يمكن أن يراها الناس ويهتدوا إليها ، ومع ذلك فهو لا يقف في نقده عند حد ذكر تلك الصفات والعناصر والأصول ، ولكنه يتعمق لكي يصل إلى أسرار تلك العناصر والأسباب التي جعلت لهذه الأصول ذلك التأثير في النفس ، فهو لا يكتفي بذكر أنّ في هذه الجملة أو تلك تقديما أو تأخيرا ، أو ذكرا أو حذفا أو تعريفا أو تنكيرا ، وأنّ ذلك كله جعل النفس تتأثر به تأثيرا عميقا ، بل يبحث عن السبب الذي من أجله كان لهذه المظاهر أثرها في النفس "[31].

ومن الأمثلة على ذلك قوله في الفصاحة : " لا يكفي في علمٍ "الفصاحةِ" أن تَنْصُبَ لها قياساً ما، وأن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً، بل لا تكونُ مِن مَعرفتها في شَيءٍ حتى تُفصِّل القولَ وتُحصِّلَ، وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعْرِضُ في نَظْم الكَلِم وتَعُدُّها واحدةً واحدة، وتُسمّيها شيئاً شيئاً، وتكونُ معرفتك معرفة الصنع الحاذف الذي يعلم علم كل خيط من إلا بريسم الذي في الدِّيباج، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المنجورة في الباب المقطع، وكل جره منَ الآجرِّ الذي في البناء البديع." [32].

ومن ثمّة فمهمة المتلقي لا تتوقف عند التأثر بالنصوص الفنية بل لابدّ من البحث عن أسباب ذلك الأثر الجمالي لأنّه كما يقول الجرجاني : " لا بدَّ لكلّ كلامٍ تستحسنُه، ولفظٍ تستجيدهُ، من أن يكونَ لاستحسانِك ذلك جهةٌ معلومةٌ وعلَّةٌ معقولةٌ وأن يكونَ لنا إلى العبارةِ عن ذاك سبيلٌ، وعلى صحةِ ما أدّعيناه من ذلك دليلٌ. وهو بابٌ منَ العلمِ إذا أنتَ فتحتَه اطَّلعْتَ منه على فوائدَ جليلةٍ، ومعانٍ شريفة " [33].

ومما سبق ذكره يمكن القول ما يلي:

- ✓ المتلقي في تصور عبد القاهر الجرجاني لا يمكن أن يكون مجرد قارئ فقط بل المسألة تتجاوز ذلك إلى جعله قارئا ومنصتا ومستمعا ومبدعا وناقدا ، ومن ثمة له دور كبير في إحياء العملية الإبداعية واستمرارها .

- ✓ التلقي في نظره إبداع واجتهاد وليس بالعمل اليسير لأنّه يقتضي النظر بالقلب والاستعانة بالفكر وإعمال الرّوية ومراجعة العقل والاستنجاد بالفهم .
- ✓ ضمّن عبد القاهر نصوص كتابيه " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " مجموعة من الأدوات والمقومات الواجب توفرها في المتلقي حتى يكون قادرا على التجاوب مع النصوص الفنية والإبداعية والتفاعل معها والحصول على ما يثيره من متعة ولذة وجمالية ، وهذه الآليات أشهرها :

* الذوق
* الإطار الثقافي
* الدّربة
* التأمل
* موضوعية الجمال

الهوامش :

[1] عبد الله عبد الرحمن أحمد بانقيب : البلاغة والأثر النفسي دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني (رسالة لنيل شهادة الماجستير) ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى، 2002 ، ص14

[2] عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة ، دار المدني، جدة، ط1 ، 1991م، ص26

[3] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص87

[4] ينظر: عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة ، ص19 و121و128و129 ، و عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص46 و47و85و132و286

[5] عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة ، ص90و91

[6] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص84و85

[7] ينظر: عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة ، ص8و14 ، وأيضا عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ،ص47و151

[8] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز،ص176

[9] عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة ، ص8

[10] ينظر: محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1999م، ص249

[11] عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة ، ص145

[12] ينظر: عبد الله عبد الرحمن أحمد بانقيب : البلاغة والأثر النفسي دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني ، ص198و199

[13] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص146

[14] عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة ، ص145

[15] عبد الله عبد الرحمن أحمد بانقيب : البلاغة والأثر النفسي دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني، ص201

[16] ينظر: عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص64

[17] المصدرنفسه ، ص7

[18] قاسم المومني: " أداة الناقد : دراسة في الموروث النقدي" ، مجلة جامعة الملك سعود، الرياض، الجلد الخامس، 1993م، ص52

[19] عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة، ص306

[20] المصدر نفسه ،ص 66

[21] قاسم المومني: " أداة الناقد : دراسة في الموروث النقدي ، ص67

[22] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص291

[23] المصدرنفسه ،ص 303

[24] عبد الله عبد الرحمن أحمد بانقيب : البلاغة والأثر النفسي دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني، ص 213

[25] عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة، ص146

[26] المصدر نفسه، ص 147و148

[27] عبد الله عبد الرحمن أحمد بانقيب : البلاغة والأثر النفسي دراسة في تراث عبد القاهر الجرجاني، ص217

[28] عبد القاهر الجرجاني : أسرا ر البلاغة، ص134

[29] المصدر نفسه ، ص 64

[30] سالم عباس خدادة :" النص وتجليات التلقي " ، حوليات الآداب والعلم الاجتماعية ، الكويت ، العدد20 ، 1999 و2000 ، ص 45

[31] ليلى عبد الرحمن الحاج : الذوق الأدبي في النقد القديم ، (رسالة لنيل شهادة الماجستير) ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ، مكة ، 1403و1404هـ ، ص302

[32] عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 37

[33] المصدر السابق ، ص 41

*** *** ***